الفصل السادس عشر

عودة ائتلاف العائلة (١٩٣٨)

لم يخلق إليوت شخصية مكتملة الأبعاد عميقة الأغوار فى أية مسرحية من مسرحياته بقدر إبداعه لشخصية إيمى الأم العجوز والدة هارى بطل المسرحية الذى ورث لقب زوجها الراحل اللورد مونتشيزنى . ومن الشخصيات الضعيفة فى المسرحية فيوليت وإيڤى وهما أختا إيمى ، وجيرالد وشارل وهما عما هارى ، وجون وآرثر وهما أخوان صغيران لهارى .

تبدأ المسرحية بحفل عيد ميلاد إيمى الوالدة وهى فرحة إذ سيحضر هذا الحفل (الذى لن يتم) ابنها الأكبر هارى ، لكنها منعت جون وآرثر من الحضور لاستهتارهما وبخاصة آرثر الذى قبض عليه منذ بضعة أسابيع بتهمة الإخلال بقوانين قيادة السيارات . وهذا الجانب من المسرحية يمثل شطر الحياة العادية بصخبها ومشكلاتها اليومية . وهناك شطر آخر يمثل الناحية الروحية ويتركز فى شخصية أجاثا خالة هارى . إنها تفوق الشخصيات الأخرى فى قربها من لحظات الكشف والنورانية الروحية والشفافية النفسية التى تؤدى إلى الغوص إلى أعماق الذات لتبيانه ومعرفة أصله وكنهه .

إن هارى لا ينتمى إلى الجانب الذى يمثل حياة ويشوود العادية ، ذلك أنه ثار على تقاليدها وتقاليد العائلة برفضه الزواج من هارى الفتاة الوادعة التى احتفظت بها إيمى لابنها الأكبر . فلقد تزوج هارى بمن أحب ، لكنه دبر قتل زوجته على سطح الباخرة فى طريق عودتهما من أمريكا . كما أنه من ناحية أخرى لم يتمكن بعد من الدخول إلى المحيط الروحى الذى تسيطر عليه أجاثا . فهو

---

(١) *The Family Reunion*

حائر بين الشطرين كما يتمثلان فى والدته وخالته ، إلا أنه يشعر أنه بحاجة إلى إرشاد أجاثا الروحى لتخلصه من هذه الحيرة النفسية .

إن حياة والدته إيمى حياة آلية متكررة لا طعم لها ولا رائحة ، فهى تود أن يبقى كل شىء على ما هو عليه ، ذلك أنها تكره التطور ، ولا يمكنها أن تتصور حدوث أى تغيير فى مجرى حياة العائلة ، إذ أنها محافظة إلى أبعد حد ، وتظن أن دقات الساعة ستتوقف بعد مفارقتها للحياة . وعلى أية حال فالحياة بالنسبة لها لا تعدو أن تكون نظاماً محكما ، وإرادة قوية ، وتود بكل قواها أن يشب كل أبنائها طوع بنانها وتحت سيطرتها دون أن يشذ منهم أحد . إنها فى آليتها هذه شبيهة بفرسان الملك هنرى الثانى فى المسرحية السالفة الذكر « جريمة قتل فى الكاتدرائية » .

أما هارى فهو يشبه إلى حد كبير جماعة الكورس التى ترك فيها بيكيت أثره الروحى . وشخصية بيكيت فى تلك المسرحية تتقابل مع أجاثا فهى تؤمن بالألم والحدث وبالصلة بينهما . والفرق بين أجاثا وبيكيت هو أنها قد عرفت الخطيئة عن قرب فاختبرتها ومرت فى مراحلها المختلفة . ففى حديثها مع هارى تعود به إلى الوراء عدة أعوام ماضية قد ولت إلى غير رجعة حينما كانت طالبة بجامعة أكسفورد . وكانت أختها الكبرى إيمى قد تزوجت منذ ثلاث سنوات ولم تنجب أطفالاً فشعرت بالوحدة وطلبت من أجاثا أن تقضى معها العطلة الصيفية بأكملها . وشعرت أجاثا بعد مجيئها إلى ويشوود بأن العلاقة بين أختها إيمى وزوجها على وشك الانفصال ، فإن الرجل لم يخلق لحياة التكلف التى تحياها إيمى والتى تود زوجها أن يشاركها هذا الطابع من الحياة ، فأراد أن يتخلص من زوجته وشرع فى قتلها بطريقة ساذجة . لكن أجاثا تفاجئه قبل أن يقدم على فعلته فتثنيه عن عزمه ويذعن للأمر وبخاصة أنها تذكره بوجود الجنين فى أحشاء أختها ، وقد اكتمل هارى فى ذلك الوقت شهرة السادس . إنها تحس بأنه ثمرة حب زوج أختها لها ، فهارى بالنسبة لها رمز الحياة . وفى

موته موت لها سيلازمها ويلاحقها طوال حياتها ، فهى تشعر فى قرارة نفسها أنه ولدها هى ، إذ تقول لهارى :

« لم أود قتلك !

أتقتل أنت! وماذا كنت حينئذ ؟ شيئاً

يطلقون عليه " الحياة " —

شيئاً سيصبح ملكاً لى ، كما شعرت حينئذ .

إن غالبية الناس لن يحسوا بوخز الضمير

طالما أنهم لم يشعروا بأى شىء آخر . لكننى أريدك !

ولو حدث ذلك لعرفت أننى سأحمل

الموت فى أحشائى ، وسيلازمنى الموت طوال حياتى . لقد أحسست بطريقة ما أنك ملكك لى !

وعلى أية حال لن يكون لى طفل آخر »[١] .

ولعلها تحس بالراحة النفسية بعد أن أخبرت هارى بكل ما حدث ، فلقد أزالت هذا العبء عن كاهلها وتركته لينوء هو بحمله . إنه يحس بثقل هذا الحمل من الالتزامات العائلية ، وإصرار والدته على لقب اللوردية ، وواجباته نحو جيرانه وأهل ويشوود عموماً . وهنا يلمح معالم المأساة التى هجرها منذ سبع سنوات وقد أخذت تتكرر فى إيقاع متبلد مرير يسير على وتيرة واحدة دون تغير . إنه يقع نهباً لبعض الهواجس التى تدور بخلده ، تختلط فيها الحقيقة بالخيال ،

(١) "I did not want to kill you !
You to be killed ! What were you then ? Only a thing called 'life' —
Something that should have been mine, as I felt then.
Most people would not have felt that compunction
If they felt no other. But I wanted you !
If that had happened, I knew I should have carried
Death in life, death through lifetime, ideath in my womb.
I felt that you were in some way mine !
And that in any case I should have no other child."
Ibid., *The Family Reunion*. London 1939, p. 104.

والأشباح بالواقع . فهو ينفر من واقع والدته بحبها للسيطرة ، وتتوق نفسه للحرية والانطلاق نحو الخلود الذى يرمز إليه إليوت بالحديقة الغناء . وهى نفس الحديقة التى أشار إليها فى « رباعياته الأربع » فى حركتها الأولى التى أطلق عليها اسم « نورتون المحترقة » ، حيث تسمو الروح لتجوب آفاق اللانهائية وتعبر ذلك المماس الذى يلتقى فيه زمننا الأرضى مع اللازمنية فى لحظة من لحظات الخلود . ويعتبر هارى هذه اللحظة بداية طيبة لحياة جديدة بعيدة عن الخداع الحسى والنفسى ، فيها تتجاوب روحه مع « الحقائق المطلقة » لهذا الكون الغريب .

فلا غرو إذن إن شد رحاله ثانية هائماً باحثاً عن موضع مكانى آخر بعيداً عن ويشوود بتقاليدها البالية العتيقة التى لا تشبع آماله ورغباته . وتنصحه أجاثا أن يعجل بالرحيل وإلا لفقد كل ما تصبو إليه نفسه . وهنا يسألها هارى : « ترى هل سنتقابل ثانية ؟ » فترد عليه على الفور بأن اللقاء للغرباء وهما ليسا كذلك بعد أن تحابت وتعانقت روحهما فى تلك اللحظة النورانية .

ولم يقطع حبل هذه المناغاة الملائكية سوى دخول الأم العجوز إيمى فتبدى دهشتها لرغبة ولدها هارى فى الرحيل ثانية ، وتزداد غرابتها أمام إلحاح أجاثا بتركه ويشوود ، فالأم تعيش فى محيط آخر تماماً . ولهذا نجد هارى لا يحاول أن يشرح لها ما يريد وما تتوق إليه نفسه ، معتذراً لها بأن الكلمات اللغوية لا قدرة لها على الإفصاح بما يحس به فى أعماقه الداخلية . إنه ماض إلى الشطر الآخر من الحياة ، إلى الشاطئ المقابل بعد أن عبر بحر الآلام بأنوائه النفسية وأعاصيره السيكولوجية ، هنالك على الجانب الآخر حيث الحياة الهادئة للتعبد والتأمل داخل محراب التشوف والتكامل ، فهو سبيله الوحيد الذى يروى ظمأه ويشفى غلته .

إن إيمى تعجب أيضاً لأمر أجاثا فلقد جاءت إلى ويشوود منذ خمسة وثلاثين عاماً حين مات زوجها كمداً ، والآن تحاول أن تستحوذ على ابنها هارى بكل قواها ، فما دهاها هذه العانس ؟ لقد قضت ثلاثين عاماً بين الطالبات والآن

وبعد أن أصبحت ناظرة لمدرسة ثانوية للبنات . عرفت أنها لن تتمكن من التخلص من حياة العزلة والانفراد . وعرفت أيضاً أنها قد حاولت عبثاً ألا تكره البنات . وأثناء ذلك طلبت منها إيمى أن تتردد على ويشوود حتى لا تروج الشائعات للعلاقة الآثمة بينها وبين زوجها الراحل . وحاولت أن تقوّم ما تراه من اعوجاج فى ولدها هارى وتدخل على نفسه شيئاً من البهجة والسرور بعد أن فقد والده ، فإذا به ، كما يتراءى لها ، شخصية مهلهلة محطمة ، خاضع لنزواته ، ضعيف أمام الجنس الآخر ! لقد جن جنون هذه السيدة العجوز إذ وجدت التاريخ يعيد نفسه . وأن هارى لا يقل ضعفاً عن أبيه أمام إغراء النساء . وفى الوقت الذى تنتظر فيه عودته . وتتوسم فيه رفع شأن العائلة والرجوع إلى حياة الطمأنينة والاستقرار . فإذا بها تفاجئ بحزم أمتعته ، فهو على أهبة الرحيل ! يا لقسوة الزمن ويا لسخرية القدر !

لقد حاولت أجاثا أن توضح لأختها الكبرى حقيقة الأمر ، فلا استقرار ولا طمأنينة فى ويشوود حيث مكمن الخطر . إن هدوء النفس وراحة الضمير هنالك على الجانب الآخر من الحياة حيث نجد حقائق الوجود وكل ما يقلق راحة الإنسان ويعكر صفوه من أمور دنيوية قد اضطبغت بصبغة جديدة . واتخذت لها مفاهيم ومعانى تغاير تلك التى تعارف عليها بنو البشر . ثم بينت لها كيف أن هارى سيسير فى الطريق ذى الاتجاه الواحد فلا يمكنه العودة . فالذى يتجه بكلياته إلى الحقائق الخالدة يصعب عليه العودة إلى ضجيج العالم وتنازع المرئيات .

هكذا خطت أجاثا إلى العالم الآخر . عالم الوضوح النورانى والإشعاع الروحى . وأخذت معها هارى الذى حزم أمتعته ليسير فى نفس الطريق الذى سارت فيه . يترسم خطاها . ويردد كلماتها التى أخذت تطن فى آذانه بين الفينة والفينة كلما خلا إلى نفسه بعيداً عن سيطرة والدته . وماري أيضاً الفتاة المعروفة بطيبة قلبها تود هى الأخرى أن تتبع نفس الطريق . فلقد نفذت كلمات

أجاثا إلى أعماق النفوس ، وحرّكت أوتار القلوب ، فداعبت مخيلة سامعيها ، وأيقظت مشاعرهم من ذلك السبات العميق الذى لازمهم طيلة حياتهم .

أما الوالدة فلقد أصبحت حطاماً أمام فرار أولئك الذين عقدت عليهم آمالها ، فخارت قواها دفعة واحدة ، وفارقت روحها ويشوود التى طالما تمسكت بها فى الوقت الذى فيه تضع بقية أفراد العائلة كعكة الميلاد بشموعها على المنضدة انتظاراً للحفل !

* * *

ولعل أهم مشهد فى هذه المسرحية هو المشهد الثانى من الجزء الثانى ، وفيه تضع أجاثا أصبعها على مواطن الضعف فى هارى ، وتلفت انتباهه إلى العوامل الخارجية التى أدت إلى شقائه ، كما تشير أيضاً إلى ضعف والده وتبرمه بحياة ويشوود برونينها المعهود . وهنا يدرك هارى أن اللعنة التى حلت عليه مصدرها بيشيّاو وراثياً ، فالمجتمع حوله ملىء بالرياء وحب الظهور . ومع أن والده قد سئم هذه الحياة ، إلا أنه كان ينوى قتل زوجته بعد أن فتن بحب أجاثا وقامت بينه وبينها علاقة آثمة . فتتجسم أمام هارى ملامح الشر ويعرف أن تعاسته راجعة إلى الجو المحيط به فى ويشوود حيث نشأ . وبعد أن تعرض لوخز الضمير وألم تهدأ نفسه أمام الكلمات البليغة المؤثرة التى تلقيها أجاثا على مسمعه ، وبهذا تتحول اللعنة تدريجياً إلى هناءة بعد أن عرف من أجاثا الطريق القويم . وهكذا يختمر الماضى فى ظلال الحاضر ، ويخرج الخير من براثن الشر ، وتتدفق السعادة من ينابيع الآلام . وهذه كلها ترجع فى أصولها وبواطنها إلى « الحقيقة » التى عرفها هارى عن ماضى العائلة وما ينتظر ويشوود من مستقبل مشؤوم . إن فى هذا التكشف النفسى والروحى انقشاع لسحب الماضى بغيومها وانفعالاتها وأسرارها ، وهذا التكشف قد عاد على هارى بالخير والفائدة . فهو يهدف إلى ائتلاف شمل العائلة على أساس هذا المفهوم الصوفى الذى أصبح بمثابة البعث الحقيقى الجديد لكل أشلائها .